ومع أنهم كانوا يرون الدار خالية مما كان فيها من الحيوان، ومع أنهم كانوا يرون أنَّ أثاث الدار يبلى شيئًا فشيئًا دون أن يُجدد، ومع أنهم كانوا يرون أمهم عاطلًا لم يبق لها خاتم تديره حول إصبعها، فقد كانوا مطمئنين إلى أنَّ أباهم قادر على كل شيء، وكانوا واثقين بأنهم سيجدون في الدار ما تعودوا أن يجدوا من السعة والرخاء، والشيء المهم هو أنَّ جلنار كانت تنهض بخدمتهم لا تكلُّ، تستيقظ مع الفجر قبل أن يستيقظوا، وتنام عند منتصف الليل بعد أن يناموا، لا تفتر عن العمل ساعة، ولا تذوق الراحة لحظة، وهي بذلك سعيدة وإليه مطمئنة، لولا ما كانت تلقى من تعنيف خالتها الذي لم يكن ينقطع، ولولا ما كان يوجه إليها هؤلاء الشباب الأشرار الجاهلون للجميل من مزاح لا يخلو مما يُؤلم، ولولا أنَّ سالمًا كان ينتهز هذه الفرصة فيزور الأسرة ويطيل الإقامة فيها، ويكون أشد أترابه رغبة في الدعة والرخاء وحاجة إلى الخدمة، وأطولهم لسانًا بما يسوء.

وكان أحب أوقات جلنار إليها وآثرها عندها هذه اللحظات القصار التي كانت تقدم فيها القهوة إلى أبيها مع الصبح وخالتها نائمة لم تنهض بعد، فكانت تقف بين يدي أبيها وهو يأكل كسرة الخبز المجففة يغمسها في الملح ويشرب فنجانيه من القهوة السادة، ويتحدث إلى ابنته حديثًا هادئًا عن إخوتها كيف أنفقوا أمسهم وكيف يريدون أن ينفقوا يومهم، وماذا يجب أن تُعد لغدائهم أو عشائهم من طعام، وكانت تحب أيضًا هذه اللحظات القصار التي كانت تصب فيهن الماء أثناء وضوئه إذا نهض من نومه بعد الغداء، حتى إذا أسبغ وضوءه تركته يصلي العصر، ثم عادت إليه بفنجانيه من القهوة، فأخذ يشربهما مستأنيًا، ويداعبها حول ما أعدت من طعام، يمدح هذا اللون ويعيب ذاك، والفتاة ترد على أبيها مداعبة، ترق له حينًا وتعنف به حينًا آخر، ويبلغ بها العنف أن تشبه أباها بالقطط التي تأكل ثم لا تتحرج من أن تنال مُطعِمَها بالمخالب، وكان أبوها يسمع منها ويضحك لها، وينصرف وفي قلبه كثير من حنان، وعلى لسانه شيء من دعاء لا يسمعه إلا الله؛ لأنه كان يخشى أن يسمعه أحد أبناء الأسرة، فقد استقر في الأسرة كلها أن جلنار حمقاء ورهاء، لا تقدر على خير، ولا تستحق خيرًا، وكانت جلنار تجد شيئًا من الراحة والروح حين تقدم إلى أمها قهوة الصباح بعد أن ينصرف أبوها وقبل أن تنهض خالتها، فتلقي إلى أمها كلمات سريعة كأنما تخطفهن خطفًا، وتُلقي إليها أمها كلمات سريعة كأنها تختلسهن اختلاسًا، ثم يفرق العمل بين الأم وابنتها، فالفتاة مضطربة في البيت لا تستقر كأنها خذروف الوليد، وأمها مقبلة على ما كانت موكلة به منذ عاد إليها بعض رشدها من الخياطة وإصلاح ما كان الشباب والصبية يمزقون من الثياب.